الحمد لله رب العالمين حمدا يوافي نعمه، والصلاة والسّلام على خير عباده وأكـــرم خلقه وخاتم أنبياءه ورسله محمد الأمين المبعوث بالحق إلى الناس كافة بشيرا ونـــذيرا وبعد:

لم يكن المجتمع الأندلسي، مجتمع بسيط التركيب وإنّما كان عبارة عن فسيفساء من العناصر البشرية والثقافية متبايّنة أشد التباين في أصولها العقائدية والدينية، من بين هذه العناصر أهل الذمة، الذين يعتبرون من أهم الفئات الإجتماعية التي تشّكل منها المجتمع الأندلسي واحتّلوا مكانة هامة فيه.

ارتبط وجود هذه الفئة بقيام الدولة الإسلامية وتطوّرت بتطورها خاصة في العصر الأموي، فقد شهد هذا العصر ازدهارا لنشاط أهل الذمة وبـــرزوا بـــشكل كبيـــر فـــي المجالين الإجتماعي والعلمي مستفيدين من جوّ التسامح الذي يسود المجتمع الأندلـــسي في العصر الأموي، حيث عني الإسلام برعاية مصالحهم والمحافظة على أمنهم وفـــق العهد الذي أعطى لهم الحق في ممارسة شعائرهم الدينيّة والعقائدية.

وبعد أن قمنا بالإطلاع على ما قام به الباحثون في مجال هذه الدراسة وجـــدنا أن موضوع أهل الذمة قد درس بصفة عامة ضمن كتب التاريخ العام في إطـــار دراســـة تاريخ الأندلس أو المجتمع الأندلسي وقلّما خصصت دراسة حول أهل الذمة بالأنـــدلس كدراسة مستقلة فأغلب الكتب تناولت الموضوع بصفة عامة مثـــل "كتـــاب الحـــضارة العربية الإسلامية" للخربوطلي هذا الكتاب الذي تناول أهل الذمة كفئة فـــي المجتمـــع الأندلسي دون التطرق إليها بالتفصيل، أما الرسائل التي كتبت حول أهل الذمـــة فـــي الأندلس فقد تطرقت لهذا الموضوع بشكل عام دون التخصص في جانب معـــين مثـــل

الرسالة التي قام بها الطالب الأردني عبد المطلب مصطفى رجب تحت عنـــوان أهـــل الذّمة في الأندلس في العصر الأموي تناول فيها جميع الجوانب بصفة عامة الإجتماعي و الإداري...إلخ وهذا ليس تقصيرًا منهم ولكن لقلة المعلومات على الرغم ممـــا كـــان لهذه الفئة من مكانة خاصة.

وتكمن أهمية الموضوع في إبراز الدور الذي لعبه أهل الذمة في الجانب الإجتماعي والعلمي الذي تناولنا فيه "الطب الترجمة الأدب الفلسفة" في العصر الأموي ، والتطرق إلى مختلف إنجازاتهم في كلاّ الجانبين.

أمّا فيما يخص الأسباب الكامنة وراء إختيارنا موضوع أهل الذمة في الأندلس فـــي العصر الأموي :

لا بد من إعتبار أنّ أول سبب هو رغبتنا في دراسة أهل الذمة في المجتمع الأندلسي وتحديدا في العهد الأموي الذي عرفت فيه الأندلس أزهى حضارتها ،وقد أردنـــا مـــن خلال هذه الدراسة أن نساهم في إجلاء بعض الحقائق التي تتعلق بهذه الفئـــة، والتـــي سنحاول من خلالها أن نبرز الدور الذي لم يحظى برصيده في الدراسة، وهو الـــدور الإجتماعي والعلمي لأهل الذمة ،إضافة إلى هذا فقد إستهوتنا هذه الفئة لما كـــان بينهـــا وبين المسلمين من تفاعلات حيث تشاركوا الحياة في جميع مجالاتها.

وانطلاقا ممّا سلف ذكره فإنّ الإشكال الذي يطرحه الموضوع هو:

ما هي المكانة التي احتلها أهل الذمة في المجتمع الأندلسي في العـــصر الأمـــوي؟ وكيف كانت علاقاتهم بباقي الفئات الإجتماعية الأندلـــسية؟ كيـــف مـــارس الـــذميّون أنشطتهم الإجتماعية و مدى مساهمتهم العلمية في ظلّ الحكم الأموي للأندلس ؟

وقد اعتمدنا في دراستنا لهذا الموضوع على مجموعـــة متنوعـــة ومختلفـــة مـــن المصادر، تأتي في مقدمتها كتب التاريخ الأندلسي لاحتوائها على معلومات ذات قيمـــة عالية، تبيّن من خلالها الأدوار التي ساهم بها أهل الذمة في الأندلس.

أول هذه الكتب كتاب: "تاريخ افتتاح الأندلس" لأبي بكر محمد بن عمر بن العزيـــز المعروف بابن القوطيّة، توفي سنة430هـــ-988م، حيث يتضمن هذا الكتاب الأحداث التاريخية التي مرت بها شبه جزيرة إيبيريا من الفتح الإسلامي حتى وفاة الأمير عبـــد الله بن محمد300هـــ، تكمن قيمته فيما ورد فيه من إشارات عن أهل الذمة ومكـــانتهم في المجتمع الأندلسي.

أما كتاب: "نهاية الأرب في فنون الأدب" لشهاب الدين أحمـــد بـــن عبـــد الوهـــاب النويري المتوفي سنة733هـــ، تكمن أهميته في احتوائه مواقيت الأعياد والإحتفـــالات لأهل الذمة في الأندلس.

وكتاب "نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب" لشهاب الدين أبي العباس، أحمد بن محمد التلمساني الشهير بالمقرّي المتوفي سنة1014هـــ، يعد هذا الكتاب ذو قيمة أدبية عالية رغم انتمائه إلى مؤلفات العصر الحديث، كونه موسوعة ضخمة حول الأنـــدلس وتاريخها وجغرافيتها وآدابها، منذ الفتح حتى السقوط.

كتاب:"نهاية الرتبة في طلب الحسبة" لابن بسام اعتمدناه في التعريف بعادات وتقاليد أهل الذمة من مأكل وملبس.

وكتاب:"معالم القربة في أحكام الحسبة" لمحمد بن محمد بن أحمد القرشي المعروف بابن الأخوة توفي سنة729هـــ الطبعة الأولى أفادنا هذا الكتاب في التعرف على لباس أهل الذمة وأكلهم الذي كان متميزا عن لباس وأكل المسلمين.

أما بخصوص المراجع فإننا لم نتوصل إلى مراجع ذات صلة مباشرة بالموضـــوع، فيما عدا بعض المراجع التي إستطعنا بفضلها أن نغطي ذلك الـــنقص فـــي المراجـــع المتخصصة أهمها: كتاب: "المجتمع الأندلسي" لحسين دويدار والذي حوى معلومـــات هامة حول أهل الذمة، والعلاقة بينهم وبين المسلمين.

كما استفدنا من كتاب: "الحضارة العربية الإسلامية" لعلي حسن الخربوطلي وكتاب: "المسلمون في الأندلس" لرنهيرت دوزي، حيث أعطوا لنا صورة واضحة عن مكانـــة أهل الذمة وحياتهم الإجتماعية داخل المجتمع الأندلسي.

بالإضافة إلى كتاب:"تاريخ الفكر الأندلسي" لآنجل جنثالث بالنثيا، الذي أعطانا لمحة عن الحياة العلمية لأهل الذمة وأهم أعلامهم.

ولكي يتكلل أي عمل بالنجاح ، لابّد له أن يمر بصعوبات كثيرة وجمة، فقد واجـــه هذا العمل العديد من الصعوبات لا داعي لـــذكرها بالتفـــصيل، علـــى أنّ أهـــم هـــذه الصعوبات قلة الخبرة في مثل هذه الدراسات، تناثر المعلومات بـــين ثنايـــا وســـطور المصادر والمراجع، فهي بحاجة إلى وقت وجهد كبير لجمعها وصياغتها، كما واجهتنا صعوبة التعامل مع هذا الموضوع في غياب المصادر الخاصـــة بموضـــوع البحـــث، وصعوبة الحصول عليها إن وجدت، والتي كانت ستثري الموضوع أكثر من الناحيـــة العلمية وتكشف الغموض عن بعض الحقائق وهذا ما سبب لنا صـــعوبة فـــي معظـــم مراحل هذا البحث خاصة عنصر "طبقات أهل الذمة" الذي كانـــت المعلومـــات حولـــه شحيحة إن لم نقل نادرة، إلا أن هذا لم يثني عزيمتنا في المضي قدما لإخـــراج هـــذا العمل في صورة مقبولة.

أمّا بخصوص المنهج فقد اعتمدنا على المنهج التاريخي، واستسقاء المادة العلمية من المصادر والمراجع، وقد حرصنا على توثيقها مراعاة للأمانة العلمية، وفرضت علينا طبيعة الموضوع استخدام آليات المنهج التاريخي، كالمنهج الوصفي والسردي بغرض إبراز الحياة الإجتماعية لأهل الذمة ومختلف نشاطاتهم إلى جانب التحليل والمقارنة والمنهج الاستقرائي لرصد أهم الشخصيات لأهل الذمة العلمية.

ووفقا لما تأتّى لنا من مادة علمية قسّمنا هذه الدراسة إلى ثلاثة فصول بداية بمقدمة عرضنا فيها الدراسات السابقة وأهمية الموضوع والإشكالية ثم تطرقنا إلى الأسباب والهدف من هذه الدراسة، وعرضنا أهم المصادر والمراجع وكذا الصعوبات التقنية التي واجهت البحث، وأخيرا المنهج المتبع في الدراسة.

وقد جاء الفصل الأول بعنوان: "التعريف بأهل الذمة وموقف الإسلام منهم" وقد اندرج ضمن هذا الفصل عنصرين اثنين، تناولنا في العنصر الأول الدلالة اللغوية والإصطلاحية للفظ أهل الذمة متتبعين في ذلك ما ورد في مختلف القواميس والمعاجم اللغوية، ومن ثمة موقف الشريعة السمحة من أهل الذمة كطوائف عقائدية، أمّا العنصر الثاني فقد تناولنا فيه أهل الذمة في الأندلس، ومكانتهم داخل المجتمع الأندلسي، بينّما حلّ الفصل الثاني بعنوان: "الحياة الاجتماعية لأهل الذمة في الأندلس"، والذي قسمناه كذلك إلى عنصرين، تطرقنا في العنصر الأول إلى الحياة الخاصة وأبرزنا مختلف جوانبها التي تمثلت في الزواج والمرأة والطبقات الإجتماعية، أما العنصر الثاني تناولنا فيه الحياة العامة لأهل الذمة والتي شملت الطقوس الدينية و الإحتفالات وعادات أهل الذمة وكذا التأثيرات الاجتماعية بين المسلمين وأهل الذمة.

أمّا بخصوص الفصل الثالث الذي كان بعنوان:"الحياة العلميّة لأهل الذمة بالأندلس"، تحدثنا في عنصره الأول عن العلم والتعليم عند أهل الذمة الذي كـــان مـــن مظـــاهره انتشار اللغة العربية بين أهل الذمة، وبيّنا في العنصر الثاني أشهر علماء أهـــل الذمـــة وانجازاتهم العلمية وختم هذا البحث بجملة من النتائج المتحصل عليها.

وفي الأخير يطيب لنا أن نعرب عن شكرنا العميق و عرفاننا للأســـاتذة الأفاضـــل أعضاء لجنة المناقشة على وقتهم الثمين الذي خصصوه لقراءة هذه الدراســـة ســـائلين المولى أن ينتفع بها طلاب العلم وأن نسد ثغرة في دراسة تاريخنا الإســـلامي المجيـــد بإعادة دراسته والبحث فيه للعبرة والاستفادة، وما أصبنا فمن الله وما أخطانا فمن أنفسنا والشيطان.

المسيلة في: 03 مـــاي 2015

- زياني صليحـــة
- دحماني سهيلـــة
- شبشوب عزيزة